السنة الأولى ماستر أدب قديم السداسي الثاني

المحاضرة رقم 1

مفاهيم أولية: البنية/ النص/ الشّعر

أولا: البنية Structure

1. البنية لغة

إنّ لفظة "البنية" بمختلف صيغها ومشتقاتها وهيأتها التركيبية، شائعة الاستعمال في اللغة العربية منذ القديم، فقد وردت في القرآن الكريم في أكثر من موضع، يقول تعالى: ﴿ **وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا**﴾ النبأ أية 12. وقوله: ﴿**ى سَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا**﴾ **الكهف أية 21.** وقوله تعالى: ﴿**أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ **التوبة أية 109.**

والملاحظ أن صيغة بنية لم ترد في القرآن الكريم، لكن وردت مشتقاتها وهي: بنى، بنيان، وبناء، وتدور معانيها في فلك العمارة والتشييد والإنشاء.

أما "البنية" في المعاجم اللغوية والمصادر الأدبية القديمة والحديثة، فهي لفظة ثلاثية الأصل من بني، يقول ابن منظور: "البَنْيُ" نقيض الهدم، بَنى البناء بنيًا وبناءً وبني وبنياناً وبِنْيَةٌ..... والبِنيةُ والبُنيَةُ ما بنيته، وهو البِنَى والبُنَى ..... يقال بِنْيَة، وهي مثل رِشْوَةٍ ورِشًا، كأن البِنْيَة الهيئة التي بُنِيَ عليها مثل المِشية والرِكبة".

وجاء في المعجم الوسيط، بنى الشيء –بَنيًا- وبناءً ونياناً: أقام جداره ونحوه يقال: بنى السفينة وبنى الخباء، واستعمل مجازا في معانٍ كثيرة تدور حول التأسيس والتنمية، يقال: بنى مجده". ومما سلف، فإن لفظة البنية تحيل لغويا إلى معاني: البناء والتشييد والمعمار والإنشاء.

والبنية في اللغة الأجنبية تعني (structure) مشتقة من الكلمة اللاتينية (structura) من الفعل (strure) بمعنىconstruire) أي البناء.

2. البنية اصطلاحا

متعددة هي التعاريف التي قدمت لمصطلح البنية، بتعدد التخصصات والحقول المعرفي التي ينطلق منها كل باحث فيها. يعرف أندري لالاند البنية في معجمه، قائلا: "إنّ البنية هي كل مكون من ظواهر متماسكة يتوقف كل منها على قاعدة " البنية تعني إذن تركيب الشيء من أجزاء على شكل معين ونظام معين يحدده الشخص حسب تصوره لهذا الشيء بالذات بناء على رؤية محددة.

ويعرف كلود ليفي ستراوس البنية" نسق يتألف من عناصر يكون من شأن أي تحول يعرض للواحد منها أن يحدث تحولاً في باقي العناصر الأخرى". ويمكن أن نعرف البنية بأنها ليست صورة الشيء أو هيكله أو عناصره أو أجزاءه أو وحدته المادية أو شيئيته الموضوعية ولا حتى التعميم الكلي الذي يربط أجزاءه.
بما أن البنية ليست ذاتية ولا موضوعية، ولا هي مادية أو مثالية، وهي ليست كامنة في العقل وليست انعكاساً لشيء في الواقع على عقل الإنسان، وليس لها وجود متعال، وليس لها وجود ذاتي أو تجريبي أو موضوعي أو وضعي .فالبنية، في واقع الأمر، شبكة العلاقات التي يعقلها الإنسان ويجردها ويرى أنها هي التي تربط بين عناصر الكل الواقعي أو تجمع أجزاءه، وهي القانون الذي يتصور الإنسان أنه يضبط العلاقات بين العناصر المختلفة. وهذا القانون هو الذي يمنح الظاهرة هويتها ويضفي عليها خصوصيتها. ويتم التعرف على البنية من خلال علاقة التعارض والتشابه بين العناصر المختلفة ويطلق عليها " قوانين التركيب ."
ومن أهم التعاريف وأكثرها دقة تعريف بياجيه للبنية بقوله: "البنية هي نسق أو نظام من التحولات له قوانينه الخاصة به باعتباره نسقا أو نظاما في مقابل الخصائص المحددة للعناصر، ومن شأن هذا النسق أن يظل قائما ويزداد ثراءً بفضل الدور الذي يقوم به تلك التحولات نفسها، دون أن يكون من شأن هذه التحولات أن تخرج عن حدود ذلك النسق أو أن يكون في حاجة إلى أية عناصر تكون خارجة عنه". وحدد بياجيه خصائص البنية بأنها ثلاث:

1. الكلية أو الشمولية: وتعني أن البنية ليست موجودة في الأجزاء .

-2التحولات: هي التي تمنح البنية حركة داخلية وتقوم في الوقت نفسه بحفظها وإثرائها دون أن تضطرها إلى الخروج عن حدودها أو الانتماء إلى العناصر الخارجية .

-3التنظيم أو التحكم الذاتي: ويعني أن البنية كيان عضوي متسق مع نفسه منغلق عليها مكتف بها، فهي كل متماسك له قوانينه وحركته وطريقة نموه وتغيره، ومن ثم فهي لا تحتاج إلى تماسكه الكامن.

وتعد هذه السمات الثلاث هوية البنية، التي تجعلها نظام من العناصر وشبكة من العلاقات المعقدة.

واستخدم العرب القدامى مفهوم البنية وجوهره في مسميات عديدة، فنجد الجاحظ وابن رشيق بمعنى النسج، واستعمل علماء اللغة النظم للتعبير عن البنية عند الجرجاني، كما تعبر كل من ألفاظ: التركيب والتأليف والترتيب والتعليق والبناء على مفهوم البنية.

ثانيا/ النص Texte

1. النص لغة

يوق ابن منظور: "النص: رَفْعُكَ الشيء. نَصَّ الحديث يَنُصُّه نصًّا: رفعه. وكل ما أُظْهِرَ، فقد نُصَّ ..... وأصل النَّصِ أقصى الشيء وغايته". وفي مقاييس اللغة لابن فارس نجد " النون والصاد أصل صحيح يدل على رفع وارتفاع الشيء ....".
أما في المعجم الوسيط، فنجد نصَّ الشواء –نصيصاً: صوَّت على النار... ونصَّا: عينه وحدده، ويقال: نصّوا فلاناً: سيّدوه: نصبوه – والشيء رفعه وأظهره.
وجليٌ أن النص في اللغة العربية له مدلولات: الرفع والارتفاع، والظهور والبروز والتعيين، وضم الشيء وغيرها.
وما يمكن قوله إن دلالة الرفع والإظهار يعنيان أن المتحدث أو الكاتب لابد له من رفع نصه وإظهاره حتى يفهمه المتلقي، وتعني دلالة الضم في كلمة النص على الاتساق والانسجام والترابط التي يجب أن تتوافر بين جمل كل نص.
وتحيل الدلالة اللغوية لكلمة نص (Texte) في الثقافة الغربية على النسيج، وتحمل هذه الكلمة الدلالة نفسها في أصلها اللاتيني (Textus) ، وقد ارتبطت هذه الكلمة في معناها الحديث بالحقل الصناعي المادي: النسيج الاقتصادي، نسيج الخلايا ...ثم نقل هذا المعنى إلى نسيج النص، إذ اعتُبر النص نسجًا من الكلمات". وترتبط كلمة النسيج بعدة دلالات قريبة من معنى النص اصطلاحاً ومنها: " دقة التنظيم، وبراعة الصنع، والجهد، والقصد، والكمال والاستواء". وهكذا فالنص في اللغات الأجنبية مشتق من الاستخدام الاستعاري في اللاتينية لمعاني الحياكة والنسيج.

2. النص اصطلاحا

النص من المفاهيم الزئبقية التي لا يمكن تحديد مفهوم واحد وأوحد لها، فقد تعددت المفاهيم التي ظهرت على الساحة النقدية، وذلك بتعدد التوجهات والمنطلقات للباحثين والدارسين، ويمكن أن نميز بين مفهوم النص عند العرب ومفهوم النص عند الغرب.

1.2. عند العرب

يختلف مفهوم النص تبعا للحقل المعرفي الذي تتم فيه الدراسة، فالنص عند الأصوليين يعني " ما ازداد وضوحا على الظاهر، لمعنى في المتكلم، وهو سوق الكلام لأجل ذلك المعنى...والنص ما لا يحتمل إلا معنىً واحدا، أو لا يحتمل التأويل". أما عند أهل الحديث فقد جاء بمعنى الإسناد والتعيين والتحديد، فيقولون نصّ عليه كذا. ونجد عند الفقهاء بمعنى الدليل الشرعي كالقرآن والسنة ومنه قولهم "لا اجتهاد مع النّص".
أما حقل الدراسات النقدية والأدبية، فمعنى النص يدور في فلك الكتابة والتواصل والأدبية، إذ يعرفه سعيد يقطين بقوله: "بنية دلالية تنتجها ذات (فردية أو جماعية) ضمن بنية نصية منتجة وفي إطار بينات ثقافية واجتماعية محددة". ويعرفه محمد عزام بقوله: "وحدات لغوية ذات وظيفة تواصلية –دلالية تحكمها مبادئ أدبية، وتنتجها ذات فردية أو جماعية"[1]. فالنص إذن بنية لسانية ذات دلالة، وذات بعد تواصلي، وتحكم بنية النص علاقات كالاتساق والانسجام والترابط والتآلف.

[1]-محمد عزام، النص الغائب، ص 26.

أما مفهوم النص عند العرب القدماء، فلم يكن متبلورا بشكل كبير، ومرد ذلك إلى الاعتماد على وحدة البيت عند اللغويين والنقاد والبلاغيين، وفي حالات أخرى كان يعبر هؤلاء عن النص بمصطلحات أخرى منها الكلم والكلام، البيان وغيرها.

2.2. عند الغرب

ارتبط مفهوم النص عند الغرب في معظم الأحيان باللسانيات ولسانيات النص، وبموجبه ظهرت مقاربات عدة لمعنى النص، أبرزها تعريف هالداي ورقية حسن:" وحدة لغوية في طور الاستعمال، وهو لا يتعلق بالجمل، وإنما يتحقق بواسطتها. فهما يركزان على الوحدة والانسجام في النصّ من خلال الإشارة إلى كونه وحدة دلالية"، ولا يهتمان بالطول، حيث يقولان: "النص يمكن أن يكون له أي طول.... وبعض النصوص تتشابه في الحقيقة من حيث إنها يمكن أن تكون أقل من جملة واحدة في التركيب النحوي مثل: التحذيرات، العناوين، الإعلانات، الإهداءات"

و يرى روبرت دي بوجراند (Beaugrande Robert De) أن النص قد يتوسع، ليشمل أي علامة لغوية دالة، سواء مكتوبة أو منطوقة أو إشارة مرئية كلغة الإشارات. فالنص في نظره قد "يتألف من عناصر ليس لها ما للجملة من الشروط (مثلا علامات الطرق والإعلان والبرقيات ونحوها."

ويرتبط النص عند العالم اللساني هلمسليف (Louis Hjelmslev) بالملفوظ اللغوي المحكي أو المكتوب، طويلا كان أو قصيرا " فعبارة stop أي: قف هي في نظر هلمسليف نص"

أما النص من الوجهة النقدية عند الغرب، فنجد رولان بارث، " نسيج من الدوال التي تكون العمل الأدبي لأن النص هو التساوي مع اللغة ذاتها، وأنه من داخل اللغة، وأن تحول وليس بواسطة الرسالة التي تحملها والتي استعملتها كأداة، ولكن عن طريق اللعب بالكلمات التي هي مسرح لها". وتجدر الإشارة إلى أن الناقد رولان بارث تعددت تعاريفه للنص تبعا للمراحل التي مر بها نقده، فمن النقد السوسيولوجي وصولا إلى البنيوية والسيميائية والتفكيكية، مما يعني صعوبة وجود تعريف مانع جامع للنص.

ثالثا/ الشّعر

1. الشّعر لغة:

وَرَدَ في لسان العرب لابن منظور حول مادة (**شَعَرَ**) قوله:« **شَعَرَ**: شَعَرَ به وشَعُرَ ويَشْعُرُ شِعْراً، و شِعْرَةً... وكله **عَلِمَ** ... وليت ِ**شعْرِي** أي ليت **عِلْمِي** أو ليتني **عَلِمْتُ**... وشَعَرَ لكذا إذا فَطِنَ له...، **الشِّعْرُ**: منظوم القول، غلب عليه لشرفه بالوزن والقافية...قال الأزهري: **الشِّعْرُ**: القريض المحدود بعلامات لا يجاوزها، والجمع أَشْعَار، وقائله **شَاعِرٌ** لأنّه يَشْعُرُ بما لا يشعر به غيره أي يَعْلَمْ ...، ويقال **شَعَرْتُ** لفلان أي قلت له **شعرًا** وأنشد [الطويل]:

شَعَرْتُ لكم لَمَّا تيَمَّنت فضلكم على غيركمْ، سائر النَّاسِ **يَشْعُرَ**

ويسمى شَاعرًا **لفطنته**...، والشِّعْرُ **الدِّرَايةُ** و**العَقْلُ** و**الفِطْنَة**، وهو العلم بدقائق الأمور».

وجاء في المعجم الوسيط: "شَعَرَ فلانا- شِعْرًا قال الشّعر، ويقال شعرَ لهُ: قال له شعراً – وبه شعور أحسّ به وعلم..... وشَعُرَ فلان شِعْرًا : اكتسب ملكة الشّعر فجأةً"

يعني هذا أن لفظة شعر ليست مشتقة ـ كما قد يتوهم البعض ـ من الشعور، وإنّما الشاعر عند العرب يعلم ويدري ويفطن إلى ما لا يعلمه غيره، وقد شعر العرب أن الرّسول (صلّى الله عليه وسلم) أتى إليهم بما لم يعلموه، ولذلك نسبوه إلى الشّعر.

2. الشعر اصطلاحا

روي ابن رشيق في العمدة عن الأصمعي عن عمر بن الخطاب قوله: « كان الشّعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه »، ويؤكد ابن سلاّم الجمحي الفكرة نفسها، يقول: «كان الشعر في الجاهلية عند العرب ديوان علمهم ومنتهى حكمهم، به يأخذون وإليه يصيرون »، وكل هذا تلخصه المقولة التراثية المتداولة والتي غالبا ما ردودها: (الشعر ديوان العرب).

لا يكاد يختلف مدلول الشّعر عند النقاد العرب القدامى عمّا أورده ابن منظور في اللّسان فابن رشيق في العمدة يقول عن الشّعر: « وكان الكلام منثوراً فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعرافها، وذكر أيامها الصالحة، وأوطانها النازحة، وفرسانها الأجواد لتهزّ أنفاسها إلى مكارم الأخلاق، وتدل أبنائها على حسن الشيم، فتوسموا أعاريض جعلوها موازين الكلام فلمّا تمّ لهم وزنه سمّوه شعرًا، لأنهم شعروا به، أي فطنوا...وإنّما سمي الشاعر شاعرًا لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره »، الشّعر إذن فطنة وعلم وعقل ودراية، ويضيف إليه الزّمخشري الذكاء، في قوله: « **ما شَعَرْتُ به**: ما فطنت له وما علمته، و**ما يُشْعِرْكُمْ**: ما يدريكم. وهو ذكي المشاعر وهي الحواس »، وإن خرج الشاعر عن إطار هذه الدلالات لم يكن شاعرًا حتى وإن أتى بقول موزون ومقفى« فالشاعر من شَعَرَ يَشْعُرُ فهو شَاعِرٌ والمصدر الشِّعْرُ، ولا يتحقق هذا الاسم حتى يأتي بما لا يشعر به غيره، وإذا كان، إنّما يستحق اسم الشاعر... فكل من كان خارجاً عن هذا الوصف فليس شاعر، وإنْ أتى بكلام موزون ومقفى ». وبما أنّ الشّعر = العلم، فإنّ الشاعر= العالم.

الشعر{الفطنة/ الدّراية/ العقل/ الذكاء/ الإحساس}**العلم**

ربط ابن رشيق الشّعر بالغناء، فالعرب عندما أردت التغني بأمجادها وأيامها تفطنت إلى الشعر، ولم يحد عن الصواب من قال إن الشعر الجاهلي ولد نشيداً، ونشأ مسموعاً، لا مقروءاً وغناءً لا كتابةً، لذلك قال حسان بن ثابت:

تَغَنَّ فِي كُلِ شِعْرٍ أَنْتَ قَائِلُهُ إِنَّ الغِنَاءَ لِهَذَا الشِّعْرُ مِضْمَارٌ

وإذا كان الشّعر مرتبط بالغناء من جهة، فهو من جهة أخرى يقابل النّثر، فالشّعر منظوم القول و**النَّظْمُ** هو التأليف، ونَظَمْتُ اللؤلؤ أي جمعته في السّلك، ومنه نَظَمْتُ الشّعر ونظَّمْتُهُ ونَظَمَ الأمر على المثل، وكل شيء قرنته بآخر أو ضممت بعضه إلى بعض والانتظام الاتساق، بينما تعني صيغة(نَثَرَ) الانتشار والتفرق والتشتت، فتقول نثرت الشيء بيدك، ترمي به متفرقا مثل نثر الجوز واللّوز والسكر، كذلك نثر الحبّ إذ بُذِرَ، ويقال رجل نَثِرٌ بيّن

النّثر ومُنْثِرٌ كلاهما كثير الكلام، وقال الأصمعي النَّافِرُ والنَّاثِرُ: الشّاة التي تسعل فينتشر من أنفها الشيء.

فالنّثر إذن الكلام المنتشر والمتحرر من أي نظام أو قيد، وهذا ما جعل العديد من النّقاد التراثيين يقابلون بين النّظم والنّثر، «فالمنظوم هو الشّعر، والمنثور هو الكلام »، ومنهم من حدد ماهية الشعر على أساس مقابلته بالنثر وجعله مضاداً له ،« فالشعر ـ أسعدك الله ـ كلام منظوم، بائن عن المنثور، الذي إنْ عدل عن جهته مجته الأسماع، وفسد على الذوق»، من هنا أخذت المقابلة بين الشّعر والنّثر وجه المفاصلة المعيارية، فمن يضع الشّعر في أعلى مراتب الكلام، ومن يجعل النّثر أشرف مرتبة من الشّعر.